الرقم التسلسلي المعياري الدولي: 2788-8037
المزيد عن رواق عربي وقواعد تقديم الأبحاث للنشر
https://rowaq.cihrs.org/submissions/?lang=en

الإفتتاحية: صراع الحضارات، نبوءة مشؤومة يمكن أن تصبح واقعًا

محمد السيد سعيد

الإشارة المرجعية لهذا المقال: سعيد، محمد السيد (2001) *الإفتتاحية: صراع الحضارات، نبوءة مشؤومة يمكن أن تصبح واقعًا*. رواق عربي، 6 (3)، 6-22.

إيضاح
هذا المقال يجوز استخدامه لأغراض البحث والتدريس والتعلم بشرط الإشارة المرجعية إليه. يبذل محررو رواق عربي أقصى جهدهم من أجل التأكد من دقة كل المعلومات الواردة في الدورية. غير أن المحررين وكذلك مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان لا يتحملون أي مسؤولية ولا يقدمون أي ضمانات من أي نوع فيما يخص دقة أو كمال أو مناسبة المحتوى المنشور لأي غرض. وأي آراء يعرضها محتوى هذا المقال هي آراء تخص كاتبيه، وليست بالضرورة آراء محرري رواق عربي أو مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

حقوق النشر
هذا المصنف منشور برخصة المشاع الإبداعي نَسب المُصنَّف 4.0.

صراع الحضارات.. نبوءة مشؤومة يمكن أن تصبح واقعا

أفضت العمليات الإرهابية التي وقعت في الولايات المتحدة يوم ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م إلى إزهاق أرواح آلاف الأبرياء. ثم إنها قادت إلى انعكاسات مهمة على الأبعاد السياسية والاستراتيجية للعلاقات الدولية.

وأفضت العمليات العسكرية التي شنتها الولايات المتحدة على الأراضي الأفغانية بدءا من يوم ٨ أكتوبر عام ٢٠٠١م إلى إزهاق أرواح مئات وربما آلاف الأبرياء. ثم إنها انطوت على تغيرات وعواصف مهولة على الأبعاد السياسية والاستراتيجية للعلاقات الدولية.

ولكن النتائج الإنسانية، والسياسية والاستراتيجية لهذين الحدثين ليست هى ما يميز هذه الأزمة عما شهدناه من أزمات وصراعات منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن.

ما يميز تلك الأزمة هو أنها فتحت بضربة واحدة كهذه ملف صراع الأديان والثقافات، وبصورة محددة الصراع بين الإسلام والحضارة الغربية الراهنة.

فلم تعد تلك مجرد نظرية أو افتراض.. ولم تعد مجرد نبوءة مشؤومة.. بل اقتربت خطوات كثيرة من التحول إلى واقع.

وفيما لو حدث ذلك ستكون النتيجة أمرا يشبه حدوث الصدوعات والفوالق الأرضية في لحظة ما من تاريخ الكون، مما أدى إلى فصل قارات الدنيا بمحيطات وخلجان ومساحات كلفت من يرغب في التواصل بينها شهورا وسنوات من السفر المضني.

وإذا ما وقعت تلك الصدوعات والفوالق بين الأديان والثقافات في لحظة ما من تاريخ البشر المقبل، فإن الفواصل لن تكون من الماء وإنما من النار. ولن يكون السفر بين الثقافات والأديان ممكنا مهما توفرت وسائل المواصلات المريحة. فالأرجح أن الإبادة المادية أو الرمزية ستكون هى النظرة السائدة والنظرية المرشدة.

هل نبالغ في مدى الخطر الذي تمثله تلك الأحداث؟ ربما، ففي التو والحال، حاول الزعماء الأمريكيون والعرب السيطرة على انتشار الاعتقاد بأن الحادث الإرهابي في الولايات المتحدة هو مقدمة لحرب دينية. وأكد الرئيس الأمريكي ومساعدوه الكبار على أن الحرب ضد أفغانستان ليست حربا على الإسلام أو

المسلمين وإنما على الإرهاب، وناشدوا مواطنيهم التوقف عن الانتقام من الأمريكيين من أصول عربية أو مسلمة، وضرورة التمييز بين الإرهاب والإسلام، لأن الإرهاب لا وطن له ولا دين.

وفي المقابل، سارعت جميع الدول العربية والإسلامية تقريبا إلى مد يد العون والمساعدة بأشكال مختلفة للولايات المتحدة في تعقب الجناة، وفي ما يسمى بالحرب ضد الإرهاب. وقدم بعض هذه الدول مساعدات لوجستيكية مهمة في العمليات العسكرية الأمريكية ضد أفغانستان، بما في ذلك دول الخليج العربية، المرتبطة باتفاقيات دفاعية مع الولايات المتحدة. واستهدفت الدول العربية والإسلامية بذلك تجنب الانقسام إلى معسكر إسلامي وآخر غير مسلم، ومن ثم نفي نظرية صراع الحضارات والحيلولة دون تحقق نبوءة صراع الأديان والثقافات.

وبغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مع التدابير التي اتخذتها الدول العربية والإسلامية والدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، فإنها قد ساعدت على إبعاد شبح حرب الثقافات والأديان والحضارات عن تصدر الساحة الفكرية والسياسية الدولية، في الأمد المباشر.

وقد يدعونا ذلك كله إلى عدم المبالغة في تصوير الخطر، فكثيرا ما تتحقق نبوءة ما ليس بفضل صدقها بذاتها، بل بقوة الإيحاء والتكرار.

ومع ذلك، فليس بوسع المراقب الأمين للأحداث، وخاصة لو كان ينطلق من منصة إنسانية حقيقية أن يهون من الخطر المحدق، أو أن يقابله بعدم اكتراث ورفض التصديق.

فثمة بعض العلامات التي لا تخطئها العين على الخطر.

فإذا ما تركنا المشاهد غير المرتبطة مباشرة بالأحداث الأخيرة واقتصرنا على إدراك المشهد العالمي الذي تكون في أعقاب الهجوم الإرهابي على نيويورك وواشنطن لوجدنا كثيراً من المظاهر غير المطمئنة.

فعلى الجانب الأمريكي والغربي بعامة لا يمكن التقليل من مدى اتساع ظاهرة الإسلاموفوبيا كرد فعل على أحداث نيويورك وواشنطن. ولا يهمنا هنا "ذلل اللسان"الذي أصاب ساسة أمريكيون وأوروبيون كبار ، مثل الرئيس بوش الذي تحدث عن "حملة صليبية" ضد الإرهاب، ورئيس الوزراء الإيطالي بيرلسكوني الذي حمل الإسلام نفسه مسؤولية ما حدث، ورئيسة الوزراء البريطانية السابقة تاتشر التي لامت القيادات الإسلامية في بريطانيا وأوربا لعدم إدانتهم بقوة كافية تلك الأحداث. بل يهمنا أكثر عمق الفزع وربما الكراهية التي بدت في ردود فعل قطاع

لا يمكن التقليل من ظاهرة الإسلاموفوبيا التي انتشرت في الغرب بعد أحداث نيويورك وواشنطن

واسع من المواطنين في أوروبا وأمريكا.

ويعتقد كثيرون أن تلك المظاهر قد تخفت أو تنتهي بعد زوال أثر صدمة الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١. غير أن تلك التوقعات ليست مضمونة بذاتها. بل قد تستمر تلك المشاعر المفزوعة أو الكارهة للإسلام والمسلمين في التعمق حتى لو تضاءل التصريح بها بعد فترة، إن لم يتم التعامل معها بإيجابية واهتمام.

وعلى الجانب العربي والإسلامي عامة، لا يمكن التقليل من جسامة مشاعر قطاع ليس ضئيلا من الرأي العام بالغبطة من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتأييدها ضمنا أو صراحة إما باعتبارها عدالة سماوية أو كانتقام مشروع من التحيز الأمريكي الأعمى لإسرائيل. وغير ذلك من مظاهر القسوة في السياسة الأمريكية نحو بلاد عربية وإسلامية مثل العراق والسودان وليبيا.

والواقع أن مظاهر التناقض بين الولايات المتحدة والرأي العام في العالمين العربي والإسلامي، ومظاهر الصراع بين أمريكا وعدد كبير من الدول والحكومات العربية والإسلامية ليست مستجدة أو حديثة بذاتها. فقد ثارت صراعات كثيرة وحادة منذ دخل الأمريكيون إلى الساحة الإقليمية العربية بقوة كورثة للنفوذ الاستعماري التقليدي في المنطقة.

ويعد الرفض الشعبي للسياسات الأمريكية أحد الملامح الثابتة للحياة السياسية في البلاد العربية والإسلامية منذ مقتبل الخمسينيات على الأقل.

غير أن تشخيص هذا التناقض والصراع ظل محصورا في صورتين أساسيتين وهما: الوطنية من ناحية والإمبريالية من ناحية أخرى. أي أن إدراك طبيعة الصراع تأسس في الجوهر على الوعي الوطني بذاته، وتماهى مع الهوية الوطنية الموروثة من عصر النضال ضد الاستعمار الأوربي. ومن هذا المنظور، لم تكن أمريكا تدرك باعتبارها دولة مسيحية أو متعصبة دينيا. بل كانت تدرك باعتبارها الدولة المهيمنة في النظام الدولي وزعيمة الرأسمالية العالمية أو بغير ذلك من المعاني والمصطلحات الدالة "مصالح" وليس "عقائد" ثابتة. فمصطلح الإمبريالية ذاته لا يقصد به بشر محددون أو نوايا وعقائد ومذاهب دينية أو غير دينية، بل باعتباره تشكيلا اجتماعيا تحركه عوامل الربح والاقتصاد والمصالح الاستراتيجية.

أما على الجانب الأمريكي، فلم يكن العامل المحرك في الظاهر -على الأقل- هو الصراع ضد "العرب" أو "المسلمين" بذاتهم أو ابتداءا من هويتهم القومية أو الدينية. بل إن العكس تماما هو ما حدث. فقد ظلت السياسة الأمريكية تنظر للمنطقة من منظور جيوبوليتكي من الناحية الأساسية. فاعتبرتها منطقة أساسية

في إطار سياسات التطويق للشيوعية. ومن ثم نظرت للإسلام كحليف لا غنى عنه في مواجهة الاتحاد السوفيتي وخطر التوسع الشيوعي عامة. ولذلك مثل التحالف مع "دول دينية" بطبيعتها مثل باكستان والمملكة السعودية أهم ركائز السياسة الأمريكية في المنطقة وفي العالم ككل أثناء الحرب الباردة. وقد تجسد هذا التحالف في حلقات متتابعة من أهمها هو الحرب ضد الوجود السوفيتي في أفغانستان.

لقد تأسس هذا التحالف بين الولايات المتحدة والاتجاهات "الإسلامية" المحافظة في العالمين العربي والإسلامي على وعي مختلف تماما عن الإدراك القومي للعرب، ومفارقا بل ومناقضا له. فقد وظف الأمريكيون "بنجاح" ملحوظ إيديولوجيا الإسلام السياسي طوال خمسين عاما متصلة، أي حتى منتصف التسعينيات تقريبا.

وقع هذا التوظيف ليس ضد أو في مواجهة الشيوعية السوفيتية أو الصينية فحسب، بل وأيضا ضد الحركات الوطنية والقومية وخاصة تلك التي اكتست بطابع تقدمي فرضته الخبرة مع الغرب وأمريكا تحديدا. وتخطى هذا التوظيف حدود العالم العربي بكثير. وعلى سبيل المثال، شحن انقلاب سوهارتو عام ١٩٦٦ بدلالات "إسلامية"، كتبرير للمذابح الرهيبة التي قام بها العسكريون في إندونيسيا بعد هذا الانقلاب الذي جمد ثم خلع سوكارنو وأطاح بنظامه. ومن المعروف أن هذا الانقلاب قد حظى بمباركة أمريكية. ووقفت عدة دول "دينية إسلامية" في خندق الولايات المتحدة ضد الناصرية والحركات القومية الأخرى في العالم العربي، بل وحاربوها معا حروبا ساخنة مثل الحرب في اليمن ٦٢-١٩٦٧. وأيدت هذه الدول بلا شروط المشروعات الأمريكية لبناء أحلاف عسكرية مرتبطة بالولايات المتحدة وحلف الأطلنطي في مواجهة الشيوعية والحركات الوطنية والتقدمية والقومية في مصر وسوريا والعراق.

وقد ظلت الولايات المتحدة "مخدرة" بتقاليد التحالف مع "الإسلام السياسي" حتى بعد وقوع "الانفصال" مع بعض الحركات التي ترفع لواء هذه الأيديولوجيا، وخاصة حركة الأفغان العرب، بدءا ربما من منتصف التسعينيات أو قبلها بقليل. وعلى سبيل المثال، يقدم الأمريكيون "برهانا" قويا على استمرار إيمانهم بهذا التحالف، وهو دعمهم القوي وتأييدهم الملحوظ -بالمقارنة مع الأوروبيين- لاستقلال البوسنة والهرسك، وإقليم كوسوفا. بل إنهم يشيرون إلى مدى ما أسدوه من خدمات "للمسلمين" عندما شنوا حربا كاملة ضد دولة الصرب تأييدا للمسلمين

وقفت عدة دول "دينية إسلامية" في خندق الولايات المتحدة ضد الناصرية والحركات القومية الأخرى في العالم العربي.

الألبان في كوسوفا.

وبالفعل، كانت المواقف الأمريكية في هذه الحالات "مرضية" إلى حد ما "للحكومات العربية التي ترفع لواء الإسلام كأساس لشرعيتها السياسية. ولكنها في المقابل، لم تكن كافية بالمرة لوقف الغضب المتراكم ليس لدى الشعوب العربية فحسب، بل ولدى حركات الإسلام السياسي الجديدة، وخاصة "الأفغان العرب".

فمن وجهة نظر الشعوب العربية، وبعض الحكومات "المعتدلة" في المنطقة، لم يكن التحرك الأمريكي هنا وهناك تأييدا لحقوق "المسلمين" ترضية مقبولة إطلاقا لاستمرار وتعمق التحيز الأمريكي الأعمى لإسرائيل، وهزال وفشل الدبلوماسية الأمريكية للسلام في المنطقة، وبعد منطلقات هذه الدبلوماسية عن مبادئ الإنصاف وقرارات منظمة الأمم المتحدة والقانون الدولي.

وظلت الشعوب وأكثر الحكومات العربية "المعتدلة" تدرك هذا التحيز الأمريكي بمصطلحات القومية والوطنية مقابل الإمبريالية والهيمنة. ولكن تيارا مستحدثا كان ينمو باطراد داخل المجتمعات العربية، أخذ يدفع الرأي العام "لرؤية بديلة" لأمريكا: رؤية تستبدل إدراك أمريكا كدولة عظمى أو إمبريالية بإدراكها "كدولة مسيحية"، دولة تعرف نفسها كجزء أو قيادة لمنطقة ثقافية أو حضارة تسميها هى ذاتها "مسيحية يهودية "Judaic Christian" .

وقد لا يسعفنا المقام هنا بتحليل متعمق لآليات هذا التحول في رؤية "الآخر الأمريكي" الذي يلعب دورا طاغيا في تلك المنطقة من العالم سياسيا واستراتيجيا واقتصاديا. إذ يكفينا لأغراض هذه الافتتاحية الحديث بإيجاز عن آليتين:

الآلية الأولى: هى اليأس القومي: كانت لمشاعر اليأس من الوصول إلى حل عادل وشامل ودائم للصراع مع إسرائيل جذور عميقة، ومَثّل طول الأمد الزمني الذي شهد محاولات عربية محمومة لإقناع الولايات المتحدة بسرعة العمل على إنجاز مثل هذا الحل دون الوصول إليه بعدا جوهريا في التراكم المطرد لمشاعر اليأس في صفوف الحكومات والجماهير على السواء. فالعرب "يطاردون" أمريكا من أجل صنع سلام عادل وشامل ودائم منذ عام ١٩٧٤ على الأقل، دون أن يصلوا إليه حتى الآن. وحيث إن عددا كبيرا من الحكومات العربية قد "أقلع" عن غطائه الأيديولوجي القومي والراديكالي، وانتقل موضوعيا إلى أيديولوجيات وسياسات وتوجهات مواتية للمصالح الأمريكية، فقد اضطر لاستنتاج أن التحيز الأمريكي لا ينطلق من "المصالح" و"السياسات" إنما من "العقائد" أي من الثقافة والدين، ومن ثم بدأ إدراك أمريكا يتغير من لغة المصالح والمواقع الاستراتيجية إلى لغة الدين

والثقافة.

أما الآلية الثانية: فهي خاصة بالترجمة الثقافية- الأيديولوجية للتحولات العاصفة في التشكيلات الاجتماعية- السياسية العربية ذاتها. وهنا قد نقفز مباشرة إلى الحديث عن "قانون" عام لهذه التحولات وما يلازمها من غطاءات أيديولوجية. يمكن إيجاز هذا القانون العام كما يلي. "طوال قرنين، تنافست أيديولوجيتان رئيسيتان على النفوذ على العقل العربي: السلفية الدينية والعقيدة القومية والوطنية الحديثة". فكلما هُزمت الأخيرة برزت الأولى إلى الصدارة. وكان هذا هو ما حدث على نحو تراكمي وإن سريع بعد هزيمة عام ١٩٦٧، وبدرجة أكبر وأشد بعد الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢".

وبوجه عام، انتزعت الأيديولوجيات السلفية التي توافقت على تسييس الإسلام زمام المبادرة في الساحة السياسية العربية كلما تضاعف الإحباط واليأس من إمكانية الوصول إلى سلام عادل وشامل ودائم في المنطقة: إذ ظل الصراع العربي الإسرائيلي يمثل المكثف الدرامي لكافة الصراعات الأيديولوجية والسياسية في الساحة العربية، وربما بطول وعرض العالم الإسلامي أيضا. وبوصول هذا اليأس إلى قمته في غضون العام الأخير الذي شهد اندلاع الانتفاضة الفلسطينية وتصاعد القمع الإسرائيلي الوحشي، تعززت الصدارة الأيديولوجية لحركات الإسلام السياسي.

ورغم أن حركة الأفغان العرب لم تكن قد ساهمت أبدا في النضال العربي والوطني الفلسطيني ضد إسرائيل، فإنها قد حصدت مناخ اليأس نحو هذا الموضوع تحديدا. إذ كان من السهل نسبياً تبرير الضربة الارهابية ضد الولايات المتحدة بإعتبارها نوعاً من الانتقام من الدولة العظمى التي صارت حليفاً (مسيحياً) لليهود في حربهم الدينية ضد الإسلام نفسه.

لقد تعاملت الولايات المتحدة تقليديا بعداء مع الحركات التقدمية والوطنية والقومية العربية، ومهدت الطريق لانتزاع "الأصولية الإسلامية" زمام المبادرة السياسية في العالم العربي.

وهكذا يكون الأمريكيون قد "ألحقوا الهزيمة" بالعقائد الوطنية والقومية الراديكالية والمعتدلة على السواء. وبمجرد فشلهم في إدراك حتمية العمل من أجل حل عادل وشامل ودائم للصراع العربي الإسرائيلي، سلموا موقع الصدارة الأيديولوجية للإسلام السياسي الراديكالي والمعتدل على السواء. كل ما حدث هو أن من ظنوه حليفا بالضرورة ظهر في نهاية المطاف كعدو وخصم بالضرورة. ولم

انتزعت الأيديولوجيا السلفية زمام المبادرة مع تضاعف الإحباط واليأس من امكانية الوصول إلى سلام عادل ودائم

يكن الأفغان العرب سوى الوسيط التاريخي لهذا الانقلاب من التحالف إلى العداوة، ومن لغة المصالح والفكر السياسي إلى لغة العقائد والدين.

لقد تطور نفوذ الاتجاه الإسلامي السياسي بسرعة واستلم زمام المبادرة السياسية في عدد لا بأس به من الدول العربية، مستفيدا من الإحباط الناجم عن فشل النظم الوطنية العربية في وقف العدوان الإسرائيلي المتواصل وحل قضية الشعب الفلسطيني.

وخلال نفس الفترة تقريبا. تصاعد نفوذ الاتجاه المسيحي السياسي الموصوم بالصهيونية (المسيحية الصهيونية) بنفس السرعة، وصارت له ركائز قوة يعتد بها في الولايات المتحدة الأمريكية. ونجح هذا التيار في التأثير على عملية صنع القرار السياسي الخارجي، بصفة خاصة أثناء حكم الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريجان. وفي الوقت الحالي، تراجع هذا التيار قليلا، ولكنه لا يزال يتمتع بنفوذ كبير على تشكيل اتجاهات قطاع لا بأس به من الجماهير الأمريكية، بل وعدد معين من المسؤولين الكبار في الإدارات الجمهورية، بما في ذلك إدارة الرئيس جورج بوش الابن الحالية.

وعلى ما بينهما من فروقات كبيرة في المضمون، فإن حركات الإسلام السياسي في العالمين العربي والإسلامي، والمسيحي السياسي في الولايات المتحدة يشتركان في عدد معين من السمات المميزة لرؤيتهما للعالم، وللواقع السياسي/ الثقافي العالمي.

ويهمنا بصورة خاصة هنا أن نقارن بين نظرة التيار الأشد تطرفا في الحركة الإسلامية من ناحية والمسيحية السياسية كما تمثلها جماعات مثل "الناجون" و"الأغلبية الأخلاقية" و"المولودون من جديد" في الولايات المتحدة، من ناحية أخرى فكل من هذين التيارين على بُعد ما بينهما من مسافات جغرافية وثقافية يصوران الواقع السياسي / الثقافي الدولي عبر ثنائية الإيمان / الكفر. فكل من لا يدين بالإسلام من وجهة نظر الإسلاميين المتطرفين هو كافر، وكل من لا يدين بالعقيدة المسيحية الخاصة بالمسيحيين الصهاينة هو كافر. كما يدرك كل منهما نفسه باعتباره الدين / الإيمان الوحيد الجائز والصحيح. وتعمل هذه الثنائية بصورة متطرفة. فالمهمة المقدسة لكل منهما هو استعادة الإيمان الصحيح الوحيد إلى العالم كله، سواءا عن طريق التبليغ / الجهاد أو التبشير / الحرب.

وينطلق كل من هذين الاتجاهين من نبوءة ورائة الأرض. ففي الجانب السياسي الديني لرجال مثل أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، يتم تجهيز "جيش محمد"

لوراثة الإمبراطوريتين الشرقية والغربية قياسا على تلك اللحظة التاريخية التي ورثت فيها جيوش العرب المسلمين السيادة من الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية في منتصف القرن السابع الميلادي. لقد قطع هذا "الجيش" نصف الطريق بإلحاق الهزيمة بالإمبراطورية السوفيتية، ولم يعد غير الإجهاز على الإمبراطورية الأمريكية، فيرث الإسلام الأرض وما عليها.

وبالمقابل، تنطلق عقائد جماعات مثل "الأغلبية الأخلاقية" ، و"الناجون" من نبوءة عودة المسيح ليرث الأرض ويحكمها ألف عام قبل أن تقوم القيامة، وذلك عبر حروب يتم فيها الإجهاز على الكفار في معركة "آرماجيدون" الجبارة.

وللوصول إلى هذا الوعد / النبوءة، يجيز الطرفان العنف ضد الآخر، بل يصورن العنف كأنه القابلة التي تلد هذا الوعد وتجعله ممكنا، فلدى الأفغان العرب، يصبح الإرهاب جهادا وهو "فرض عين" أو تكليف إجباري على كل مسلم.

أما لدى المسيحية الصهيونية، فإن العنف يبدو أشد قسوة، ويتبدى في حروب التمهيد لقدوم المسيح، وقهر "خصومه". كما يبدو العنف الرمزي والمادي نهائيا في نبوءة يوم القيامة apocalypse أو نهاية الحياة على الأرض.

ولدى كل منهما تظهر فلسطين كرمز وكموقع له رسالة خاصة في خطاب العنف والنبوءة الوراثية.

والواقع أن دور فلسطين ليس محددا بصورة قطعية في فكر المتطرفين الإسلاميين. فعقيدة وراثة الأرض تضفي على مشروع "الأفغان العرب" والتيارات المتطرفة الأخرى داخل الحركة الإسلامية طابعا هجوميا، أبعد كثيرا من مجرد "تحرير فلسطين" أو إبعاد "الكفار" من جزيرة العرب. وقد اختاروا "قلب الإمبراطورية": أي الولايات المتحدة نفسها ساحة لمعاركهم الأشد شراسة مثلما حدث في ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م. والحقيقة أن الأفغان العرب لم يشتبكوا مباشرة إطلاقا مع القضية الفلسطينية. بل ارتبط ظهورهم على الساحة الدولية والعربية بمفارقة كبرى من هذه الناحية. ففي الوقت الذي كانت فيه هذه القضية مشتعلة كاللهيب، فضل آلاف من الشباب بدءا من موريتانيا والمغرب وصولا إلى الكويت والسعودية الذهاب للقتال في أفغانستان ضد "الكفار" (السوفيت) الذين كانوا المصدر الرئيسي للدعم الاستراتيجي التسليحي للحركة الوطنية الفلسطينية. ثم ما لبثوا أن نقلوا جهادهم مؤقتا من أفغانستان إلى بلادهم الأم حيث أثاروا فزعا غير محدود لا زالت حممه متأججة في الجزائر وفي اليمن والسودان. بل إنهم قطعوا مشوارا أبعد لشن الحرب في البوسنة والهرسك والشيشان تاركين الساحة

لدى "المسيحية الصهيونية" فإن العنف يتبدى في حروب التمهيد لقدوم المسيح وقهر "خصومه".

الرئيسية للصراع العربي / الإسرائيلي لغيرهم.

ورغم هذه المفارقة التي لا تخفي على أحد، لعبت فلسطين ولا زالت تلعب دورا مركزيا في تشكيل وعي هذه القيادات. وربما تكون الأوضاع المأساوية التي ترتبت على العدوان الإسرائيلي هى ما دفعهم أصلا إلى هذه الدرجة من التطرف في رد الفعل، حيث حَمَّلوا الولايات المتحدة مسؤولية تلك الأوضاع. ومن الممكن أن تكون قد قادتهم إلى بلورة نظرية مبسطة تقول إن دفع "الإمبراطورية الأمريكية" إلى السقوط، يؤدي إلى "انهيار تلقائي" لتوابعها مثل إسرائيل.

وأيا ما كان من أمر، فإن خطاب أسامة بن لادن الذي أذاعته محطة الجزيرة بالتزامن مع بدء العمليات العسكرية الأمريكية في أفغانستان كان يمكن أن يكون مجردا من أي تأثير حقيقي على الرأي العام العربي والإسلامي لو أنه خلا من توظيف قضية فلسطين والذكريات المؤلمة التي يحتفظ بها جميع العرب والمسلمين في وجدانهم وضمائرهم. وبتعبير آخر، فإنه حتى لو لم تكن فلسطين هى ساحة المعارك الهجومية للقيادات الإسلامية المتطرفة، فإنها تظل جوهرية، سواءا في تعبئة التأييد لمشروعهم، و-بكل تأكيد- في تشكيل وعيهم ذاته.

أما بالنسبة للحركات المسيحية السياسية في الولايات المتحدة، فإن فلسطين هى ساحة العمل الهجومي (ضد العرب والمسلمين بالطبع) والمكان الذي يجسد النبوءة القيامية ويحتضنها. ولذلك كان من الطبيعي أن تشكل هذه الحركات الجيش الاحتياطي الحليف لإسرائيل داخل الولايات المتحدة ربما بدرجة أكبر من الجالية اليهودية والمنظمات الصهيونية نفسها وبصفة خاصة خلال العقدين الأخيرين.

إن هذا التماثل أو التوازي العجيب في التوجهات والبنية العقلية لا يجب أن يخفى بالطبع التضاد المباشر. فثمة نوع من الحلف الموضوعي بين هذين الطرفين على دفع المنطقة والعالم كله إلى إتون الحرب الدينية ولكنهما يمثلان الضدين المباشرين. والأهم أنهما يمثلان بؤر الارتكاز للنبوءة المشؤومة: الحروب الدينية والثقافية.

تناولت حتى الآن مكوّنين أساسيين لسيناريو الحرب الثقافية والدينية: تكوّن تقاليد قوية لتوظيف الدين في السياسة على الجانبين العربي/ الإسلامي، والأمريكي/ الغربي، ونمو حركات متطرفة ذات تأثير ونفوذ تطرح رؤى هجومية عدوانية تستهدف تغيير العالم وصبه في رؤى دينية / عقيدية أحادية.

ومجرد وجود هذين المكوّنين لم يكن ليشكل بذاته قوة دفع كافية للنبوءة

لعبت فلسطين دوراً مركزياً في تشكيل وعي هذه القيادات وقادتهم إلى نظرية أن دفع الإمبراطورية الأمريكية إلى السقوط يؤدي إلى انهيار تلقائي لتوابعها مثل إسرائيل.

المشؤومة: أي الحرب الدينية وصدام الحضارات. فالمشكلة المباشرة تبدأ في الحقيقة عندما تتوفر لتلك القوى السياسية ذات المصلحة وسائط جاهزة وقابلة للاستغلال بسهولة نسبية، وتتوفر هذه الوسائط في الحالتين في زخم من الصور الجاهزة Stereotypes المتعاكسة كصور المرأة، واستعدادات ذات جذور ثقافية تغذيها بعض الوقائع الحاضرة والمتوقعة والتي يتم التلاعب السياسي والإعلامي لتعزيز الصور الثابتة والاستعدادات الجاهزة لدى كل طرف نحو الطرف الآخر.

هنا، يجب أن نقول ونؤكد بكل وضوح وصراحة أن الصور السلبية الثابتة والاستعدادات المتطيرة والساخرة والعدوانية الأمريكية نحو العرب أقوى كثيرا من تلك التي يحملها العرب أو كانوا يحملونها في الماضي نحو الولايات المتحدة والمجتمع الأمريكي.

بل ربما يكون الأمر أشد وطأة. ذلك أن العرب المحدثين بدءوا علاقاتهم الواسعة النطاق مع الولايات المتحدة بقدر كبير من الصور النمطية الإيجابية والاستعدادات الجاهزة الحسنة التي فشلت الوقائع الصلبة في تأكيدها.

فلم يكن العرب يحملون أية ضغينة نحو الولايات المتحدة مشابهة مثلا لما تراكم لديهم تجاه أوروبا الغربية وتحديدا دول الاستعمار الكلاسيكي مثل بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وبدرجة أقل روسيا وأسبانيا. بل العكس تماما هو الصحيح. إذ نظر العرب بتفاؤل كبير نحو الولايات المتحدة التي أعلن رئيسها ويلسون مبادئه الـ ١٤ ومنها الحق في تقرير المصير. وظل العرب ينظرون طويلا، حتى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بروح من التطلع والاهتمام للولايات المتحدة كنصير محتمل في نضالهم الوطني، وكمخرج محتمل من مأزق الإمبريالية الغربية. وجاء أول إحباط كبير لهذه التطلعات بتصويت الولايات المتحدة سلبا على مناقشة قضية استقلال مصر في مجلس الأمن عام ١٩٤٦.

وتضاعف الإحباط عندما أظهرت الولايات المتحدة تأييدا كبيرا لقيام إسرائيل على حساب الحقوق العربية عام ١٩٤٧ وعام ١٩٤٨. وسريعا ما حدث الصدام بين الولايات المتحدة والحركات الوطنية والتحررية في العالم العربي. إذ حاولت الولايات المتحدة إقناع العرب بأن التهديد الحقيقي لأمنهم: أي أن عدوهم الحقيقي هو الاتحاد السوفيتي الذي كان يبعد عنهم بآلاف الأميال! في الوقت الذي كان فيه الاستعمار الأوروبي جاثما على صدورهم، وإسرائيل تدعم ركائز مشروعها العدواني في وسط إقليمهم، وعلى حساب الشعب الفلسطيني.

ليس غرضنا هنا استعراض التاريخ. فالمهم هو أن العرب قد استنتجوا في

نظر العرب بتفاؤل كبير نحو الولايات المتحدة كمخرج محتمل من مأزق الإمبريالية الغربية.

النهاية أن الولايات المتحدة مصممة على توظيف العالم العربي لمصلحتها وفرض أجندتها على الشعوب العربية، بغض النظر عن رؤى ومصالح هذه الشعوب ذاتها، بل وعلى حساب هذه الرؤى والمصالح.

وقد تكون في ثنايا العلاقات الطويلة والمتوترة منذ ذلك الحين بين العرب وأمريكا صور ثابتة للمجتمع الأمريكي: كونه عنصريا متغطرسا أحادي التفكير وعدواني بصورة عامة. وبسبب صعود الحركات الإسلامية إلى صدارة المعارضة السياسية والثقافية في العالم العربي أضيفت صفات أخرى ذات صبغة دينية للصور النمطية للمجتمع الأمريكي، تشمل التحلل الاجتماعي والأخلاقي، الإغراق في المادية واللذات الحسية، والتمركز حول الذات.

وظلت للولايات المتحدة مع ذلك أرصدة من النوايا الطيبة لدى قطاعات عريضة من المجتمعات العربية، بما فيها تلك التي أبهرها النموذج أو الحلم الأمريكي في الثراء القائم على العمل الشاق والجاد، والمهنية والنزعة لتشجيع التفوق والعلم والمعرفة والتكنولوجيا، إضافة إلى الديمقراطية واحترام كينونة الفرد الإنساني والحريات الشخصية والعامة.

ويبدو أن العكس تماما هو ما وسم صورة الأمريكيين عن العرب، المسلمين بوجه عام.

فقد ورث الأمريكيون صورة نمطية شديدة التشوه للعرب من الأوروبيين. والعرب وفقا لهذه الصورة بدو متخلفون لا يلتزمون بشئ سوى قيمهم التقليدية، ولا يعرفون معنى القانون ولا يقبلون الحداثة وخاصة الديمقراطية، ولا يقدرون الحرية الفردية- وهم عدوانيون بطبعهم ومتعصبون لعرقهم ودينهم، وميالون للحرب والعنف بوجه عام.

وأضاف عصر النفط إلى تلك الصورة الموروثة طائفة أخرى من الصفات مثل السفه وفقدان الرشد وفقدان العقلانية. وهم متعددو الأوجه، ومعقدون لا يمكن فهمهم ولا إرضاؤهم. ويربط الأمريكيون ذلك كله بالإسلام على وجه سلبي للغاية. إذ يبدو لكثيرين منهم أن الإسلام دين يحض على العنف والإكراه ويرفض الحداثة ويستعبد المرأة ويقمع الأطفال وبوجه عام يتناقض مع الحداثة وقيم الحرية والمساواة والصورة النمطية للعربي لدى الأمريكيين غرائبية: رجال يلبسون العقال ونساء محجبات أو مقنعات تماما أصابهم الثراء فجأة، فيبددون ثرواتهم فيما لا طائل وراءه. وهم في نفس الوقت يجرون وراء الملذات ويلفهم تناقض غامض بين البداوة الخشنة بما فيها من عدوانية والثراء المفاجئ بما يشتمل عليه من إنفاق لا

عقلاني وعدم اكتراث بالعمل الشاق.

لقد تعززت تلك الصورة النمطية المشوهة لدى كل طرف عن الآخر خلال ربع القرن الأخير بفضل التلاعب الكامن والتقاليد المصطنعة للثقافة الإعلامية المعاصرة، وللأحداث السياسية الكبرى التي تم تقديمها بصورة بعيدة عن النزاهة.

فلقد تحمس الأمريكيون كثيرا لانتصار إسرائيل على العرب في يونيو ١٩٦٧، وزادهم هذا الانتصار تعصبا لإسرائيل وإصراراً على دعمها. وقد ارتبط ذلك على نحو قوي للغاية بالانطباعات التي رسختها ثقافة الحرب الباردة. فرغم أن بعض الدول العربية لعبت أدوارا جوهرية لصالح الولايات المتحدة في هذه الحرب، فإن صورة الأمريكيين عنهم جعلتهم جميعا جزءا من المعسكر الشرقي.

ورث الأمريكيون صورة شديدة التشوه للعرب من الأوروبيين وأضاف عصر النفط إلى تلك الصورة طائفة أخرى من الصفات السيئة.

والأهم أن إسرائيل قد دخلت الوعي الأمريكي العام كجزء من حضارتهم، مقابل الصورة الشائهة عن الأوضاع الثقافية- السياسية العربية. فإسرائيل دولة ديمقراطية تقوم على حكم القانون!. أما في العالم العربي، فتسود نظم حكم استبدادية: تقليدية أو حديثة، تحتقر القانون، وترفض القيم الحرياتية العصرية، وتمارس مختلف انتهاكات حقوق الإنسان من اعتقال وتعذيب وتزوير للانتخابات العامة، وأحكام غير نزيهة بسبب سيطرة السلطة السياسية على القضاء.. الخ. وعلى قمة هذه النظم يحكم ملوك ورؤساء بلادهم إلى الأبد بالحديد والنار وبواسطة نخب مغلقة تتكون من العسكريين وضباط البوليس. ومقابل إفساد هذه النخب وإغراقها بالامتيازات وإطلاق يدها في التنكيل بالمواطنين والمجتمع، يتمتع هؤلاء الرؤساء بدعم غير محدود من تلك النخب التي تسيطر على جميع مؤسسات المجتمع. وفي هذه النظم يكون الأساس الوحيد للمشروعية هو إلهاب العداوات الخارجية وتوجيه مشاعر الإحباط الشعبي نحو مصادر التهديد الخارجية. ولذلك فإن النظم الاجتماعية تبقى متخلفة على نحو ميئوس منه. ويتسم النظام الاقتصادي بانعدام الكفاءة، وتبديد الموارد النادرة في مظاهر السفه والاستعراض الرخيص، أو في مشروعات عقيمة.

وفي هذا السياق، يفسر الأمريكيون والغربيون مظاهر النضال العربي ضد الصهيونية كناتج للتلاعب السياسي والديني بالمشاعر الشعبية وتوجيهها عبر دعاية موجهة إلى عدو خارجي هو الصهيونية والغرب. ولأن الجيوش العربية لم تؤسس على قاعدة شرعية سياسية مهنية حديثة، يفضل العرب وسائل الإرهاب كوسيلة للضغط على الغرب، وخاصة فيما يتعلق بقضية إسرائيل.

هذه هى الملامح العامة للصورة العربية في الولايات المتحدة. وبسبب رسوخ هذه الصورة تم النفخ في بعض أحداث العنف التي قام بها فلسطينيون على الساحة

الأوروبية مثل خطف الطائرات واتخاذ الرهائن وإطلاق النار على الرياضيين في أوليمبياد ميونخ.. الخ. وذلك بهدف تأكيد صورة العربي كإرهابي يائس موجه من أجهزة مخابرات تستهدف صرف أنظار الشعوب عن مشاكلها الحقيقية وتركيزها على عدو خارجي هو إسرائيل أو خصومة معممة مع الغرب.

وفي المقابل، انزلقت الصورة العربية والإسلامية عن الولايات المتحدة إلى تعزيز الانطباع بخصومة متأصلة وكاملة وكامنة في الطبائع والثقافة والتجربة التاريخية.

فأمريكا لا تتحيز لإسرائيل بسبب مصالحها أو أوضاعها السياسية الداخلية فحسب، بل لأنها "تشبهها". فالتجربة الأمريكية هى في الجوهر استيطان غربي حديث تم بوسائل دموية وعبر جرائم إبادة جماعية ضد الشعوب الأصلية. ومثلها في ذلك مثل إسرائيل، فإن التقاليد السياسية والاجتماعية ذات المحتوى الثقافي العدواني والتي شكلت المجتمع الأمريكي تشمل: الاستيطان، الاستيلاء على الأراضي بالقوة، القسوة فوق المعتادة والمتطرفة بوجه عام، الانتقام الثقيل من أي علامة للمقاومة، طرد الشعوب الأصلية خارج الأراضي المستولى عليها، التدمير المنظم للبنية الاجتماعية والسياسية والتنظيمية لهذه الشعوب وحركات المقاومة، الإفساد الشامل للقيادات العليا والوسيطة للمقاومة من خلال المال والمخدرات.. الخ.

فأمريكا إذن لا تدعم إسرائيل لأنها تحقق لها مصالح خارجية، وإنما لأنها امتداد لتجربة بناء أمريكا ذاتها.

ويعتقد قطاع كبير من النخبة المثقفة في العالم العربي أن ثمة روابط وامتدادات كامنة في المركب الديني نفسه، بما يتجاوز ظاهرة المسيحية الصهيونية، حيث إن البروتستانتية قد أحيت واعتمدت بكثافة على العهد القديم، وهو ما يجعلها امتدادا لليهودية بأكثر منها عقيدة مسيحية. ومعنى ذلك أن أمريكا تؤيد إسرائيل انطلاقا من تحيز ديني أيضا. وإذا أضفنا لذلك كله مستجدات الأوضاع السياسية الدولية، وخاصة بروز القطبية الواحدية والنظام العالمي الجديد ومصطلحات العولمة لوجدنا صفات جديدة للصورة النمطية للأمريكيين لدى العرب. فهذه الظواهر هى مجرد أدوات وآليات جديدة تستعملها أمريكا للهيمنة المباشرة على مقدرات الشعوب والتدخل في شؤونها الداخلية بما في ذلك بث الفرقة والصراعات الدينية وتقسيم الدول وتفتيت وحدتها السياسية وإخضاعها للثقافة الأمريكية وتصدير أشد ظواهرها إلى عالمنا العربي/ الإسلامي، بما في ذلك التحلل والشذوذ والجنس، والنزعة الاستهلاكية والعنف غير المحدود في

الإنتاج التلفازي والسينمائي، الفردية المتطرفة، ونزعة التفوق والاستعلاء العنصرية.. الخ.

إن مآل ذلك كله أن عقول الشعوب على الجانبين أصبحت جاهزة بفضل دور السياسة والإعلام لتقبل التحريض الديني الذي تقوم به القيادات الدينية السياسية بنشاط لا يكل وهمة وتركيز لا حدود لهما ولا قيود عليهما.

ولكن العامل المساعد الحاسم في عملية التجهيز هذه لا يقل أهمية. ونقصد بذلك تسارع وانتشار طائفة من الأحداث السياسية التي كان من الممكن النظر إليها كعلامات وأعراض لتحولات داخلية مرتبطة بالنسيج الاجتماعي والسياسي الخاص بكل مجتمع. ولكنها تفسر على نحو يعزز الشعور بالخوف وثقافة عدم الأمان. ويتمثل هذا العامل المساعد إذن بصورة محددة في تكريس شعور كل مجتمع بأنه معرض لهجوم ساحق من الآخر يستهدف تدمير وهز سلامه وسلامته الداخلية، بل وبقاءه ذاته.

الشعوب على الجانبين أصبحت جاهزة بفضل دور السياسة والإعلام لتقبل التحريض الديني.

ولا شك أن الحادث الإرهابي الأخير في ١١ سبتمبر ضد أهداف مدنية وعسكرية أمريكية مثّل للأمريكيين أشد صور التحدي والتهديد ضراوة في تاريخهم كله منذ حرب الاستقلال والحرب الأهلية. بل إنه كان أشد ضراوة من الهجوم الياباني على الأسطول الأمريكي الرابض في بيرل هاربر، لأنه كان موجها للمدنيين في أضخم المدن الأمريكية.

ولكن الأمر الأخطر، وهو ما نسميه هنا بالعامل المساعد أو التعزيزي هو أن هذا الحادث قُدم بالفعل للأمريكيين كجزء من طابع عام للمسلمين وللسياسات المرتبطة بالإسلام. على نحو أو آخر.

فالصورة العامة للشرق الأوسط كله تبدو وكأنها منقوعة كلية في صراعات مدوية بعضها شبه مستديم وبعضها مؤقت بفترة أو زمن محدد. وفي السنوات الأخيرة من الثمانينيات ومعظم سني التسعينيات، ثارت صراعات أو حروب دموية بين موريتانيا والسنغال، وداخل موريتانيا، وبين المغرب والبوليساريو (الصحراء الغربية)، وداخل الجزائر، وبين ليبيا وتشاد، وداخل تشاد، كما ثارت صراعات دموية بين الأكراد والأتراك، وبين العراق والكويت، والعراق والأكراد، وبين الأكراد العراقيين أنفسهم، وبين العراق وإيران، وداخل إيران، وبين الأفغان والاتحاد السوفيتي، وفيما بين الأفغان أنفسهم. وثارت كذلك حروب أهلية في اليمن والصومال، وجيبوتي وأثيوبيا وإريتريا، وفيما بين إثيوبيا والصومال. ولا شك أن الحرب الأهلية في السودان تعد من أطول الصراعات والحروب الأهلية من حيث الأمد الزمني في العالم. وإضافة لذلك ثارت حروب أهلية ودولية مدمرة داخل

البوسنة والهرسك، وبين البوسنة والهرسك ويوغسلافيا السابقة، وفي مقدونيا وقبرص. وهناك حروب أهلية في كازخستان وطاجكيستان وأوزوبكستان وبين جمهورية الشيشان وروسيا الاتحادية، وداخل الفلبين وبورما. وجميع هذه الحروب شملت أدوارا مختلفة الشدة والحدة والاتساع لمجموعات مسلحة، أو لجماعات إسلامية مسلحة.

وبوجه عام وقع نحو ٥٥ صراعا أهلياً أو دوليا شمل أدوارا رئيسية للمسلمين منذ نهاية عقد الخمسينيات، واستمرت هذه الصراعات لفترة من الزمن، كما شهدت قدرا ملحوظا من العنف.

المهم في هذه اللوحة هو أنه قد تم استدعاء "الإسلام" على نحو أو آخر في معظم تلك الصراعات إن لم يكن كلها. ويعني ذلك أنه لم تأت لحظة واحدة منذ استقلال العالم الثالث أو فلنقل منذ عام ١٩٦٠ لم تشهد نوعا من الربط الإعلامي بين الإسلام والعنف كما تبدي في صراعات وحروب أهلية ودولية والواقع أن الغالبية الساحقة من تلك الصراعات قد وقعت بين مسلمين ومسلمين.

كما أن أكثرية الصراعات الباقية شملت غير المسلمين كأغلبية سكانية أو نظم قهرية أجبرت الأقليات الإسلامية على رفع السلاح دفاعا عن أبسط الحقوق السياسية والإنسانية.

ومع ذلك، فإن العقل الشعبي خارج العالم الإسلامي غالبا ما قد ينتهي إلى الربط بين العنف والإسلام (كما يمارسه المسلمون)، وهو ما يعزز الشعور الحاد بالتهديد -عندما يدهم عنف هائل يبرر باسم الإسلام- دول معينة مثل الولايات المتحدة.

وعلى الجانب المقابل، لا يفتقر العرب والمسلمون لأدلة من الأحداث الجارية على العنف الأمريكي. فمنذ الحرب العالمية الثانية، اشتبك الأمريكيون في علاقات صراعية بوسائل عنيفة متباينة بدءا من تدبير الانقلابات العسكرية وأعمال التمرد المسلح وصولا إلى الحرب المباشرة.

ويمكن حصر مثل هذه الأعمال بالعشرات، والأهم أن بعضها كان من أكثر الصراعات الدولية عنفا وافتراسا للحياة الإنسانية مثل الحرب الكورية، وحرب فيتنام. ولا شك أن نصيب العرب من هذه الأعمال لم يكن ضئيلا، فخلال العقد الماضي وحده، شن الأمريكيون حروبا مباشرة ضد ليبيا والعراق. كما أخضعوا هذين البلدين إضافة للسودان لنظام العقوبات من خلال قرارات لمجلس الأمن. ولكن الأخطر من ذلك كله بالنسبة لتعزيز الصور النمطية لدى العرب والمسلمين من

الأمريكيين هو دعمهم ومساندتهم الكاملة لإسرائيل، وهو الأمر الذي يظهر بدرجة شديدة من الحدة والإهانة في حروب إسرائيل ضد الدول العربية وضد الشعب الفلسطيني منذ حرب عام ١٩٦٧.

وفي الوقت الحالي، صارت النظرية الأكثر انتشارا بين العرب والمسلمين من كافة الأقطار وكافة الطبقات ومختلف مدارس الفكر والسياسة هى أن الأمريكيين يستهدفون العرب بالتدمير السياسي، ويستهدفون معاملة المسلمين معاملة خاصة تضعهم في مكانة وضيعة بين الأمم.

❖❖❖❖

وحتى إذا استبعدنا مؤقتا الصور النمطية والاستعدادات الجاهزة السلبية والشعور العارم بالخوف وعدم الأمان بين العرب والأمريكيين تجاه كل منهما نحو الآخر، ثمة واقع موضوعي لا يكتمل فهم الإشكالية إلا به.

يتصل هذا الواقع بالموقع النسبي لكل طرف في النظام العالمي، وبالكيفية التي يتم بها التعامل مع معطيات هذا الموقع بين الطرفين. فالولايات المتحدة تمثل قمة النظام العالمي، وتنفرد بالقوة والنفوذ في هذا النظام. وهى تبدو مصممة على صياغة هذا النظام بما يتلاءم مع مصالحها وانفرادها بالقيادة.

وعلى النقيض، فإذا استثنينا حفنة من الدول شديدة الثراء وخفيفة السكان في الخليج العربي وفي جزر معزولة مثل بروناي، يقع المسلمون ومعهم العرب إما في قاع النظام العالمي أو في فئة الدول متوسطة النمو منخفضة الدخل، أي بالقرب من قاع النظام.

وبالنسبة للغالبية الساحقة من سكان العالم العربي والمسلمين ليس في النظام العالمي الراهن ما يعطيهم بريق أمل في التقدم والعدالة والانطلاق أو النهوض.

فهم بهذا المعنى جزء من المحيط العالمي الواسع الذي يعاني الفقر والتحلل الاجتماعي والبطش السياسي الداخلي والخارجي. وكان هذا المحيط يمد المراكز الرأسمالية المتقدمة ببعض احتياجاتها المهمة في الماضي. أما في الوقت الحالي فقد صار شبه منفك الصلة مع هذه المراكز، وصارت خدماته لها أقل أهمية بكثير عما مضى. وهو لذلك يعاني من الإهمال أكثر مما يعاني من الاستغلال.

ومن ثم، فإنه ليس لديه ما يدافع عنه في النظام العالمي القائم. كما أنه لم يعد يخشى هذا النظام. ولم تعد تخيفه لا آليات البطش ولا آليات العقاب الاقتصادي والسياسي.

وفي المقابل، فإن أمريكا -ومعها الدول الغنية المتقدمة- قد صارت أقرب إلى جزر معزولة في هذا المحيط العالمي، الأمر الذي يخلق لديها موضوعيا عقدة خوف

لقد تم استدعاء "الإسلام" على نحو أو آخر في معظم تلك الصراعات وأصبح العقل الشعبي خارج العالم الإسلامي يربط بين العنف والإسلام.

قاتل من هذا المحيط. فهى تعتقد أنها يمكن أن تغرق في هذا المحيط. وبتعبير آخر، فإن ثقافة الخوف المتنامية داخل الجزر الغنية في العالم، ومنها الولايات المتحدة- تعد من نفس نوع الأعراض المرضية التي تظهر في علاقة مراكز الإمبراطوريات التاريخية بمحيطها الواسع والمتخلف والفقير. وقد سقطت هذه المراكز واحدة تلو الأخرى بتأثير ضربات مستديمة تلقتها من محيطها الاجتماعي الواسع والمتخلف. وهى ضربات استغرقت وقتا زمنيا طويلا حتى أدت إلى سقوط مراكز الإمبراطورية. أما هذه المراكز الإمبراطورية نفسها فقد ضعفت من الداخل، وخسرت القدرة على ضبط المحيط بعد أن رفضت أو فشلت في نقله إلى مستواها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. ومثلما سقطت روما ضحية ضربات قبائل الهان، وسقطت بغداد ضحية ضربات التتار والمغول، يخشى الأمريكيون والأوروبيون أن تسقط حضارتهم ضحية المحيط العالم ثالثي الفقير والذي تفترسه شتى الأمراض الثقافية والاجتماعية. ويتعمق هذا الشعور مع بروز أجندة جديدة تميز علاقات الشمال الصناعي المتقدم ونظرته إلى العالم الثالث مثل المخدرات، والهجرة واللجوء السياسي والاقتصادي، والجريمة المنظمة وغير المنظمة والأمراض الوبائية الجديدة والبيئة وحقوق المرأة والإنسان بوجه عام، وأخيرا الإرهاب والعنف.

النظرية الأكثر انتشاراً بين العرب والمسلمين الآن هي أن الأمريكيين يستهدفون تدمير العرب ووضعهم في مكانة وضيعة بين الأمم.

وفي هذا الإطار، فإن الخوف المتبادل والذي يبرز بحدة خاصة في علاقات العرب بالغرب وأمريكا على وجه الخصوص يعد مجرد شكل خاص لتلك العلاقة المأزومة والفاشلة بين الشمال والجنوب بوجه عام. وفي بؤرة هذه العلاقة المتوترة ظهرت نظرية صراع الحضارات.

إن المكونات الأساسية لانفجار صراع ديني بين العرب وأمريكا صارت جاهزة. فماذا يقف حائلا دون انفجارها حتى الآن.

الواقع أن "نبوءة الانفجار الكبير" والذي قد يتخذ أبعادا قيامية ليست سوى شكل واحد لحركة هذا التناقض أو الصراع. فثمة صور أخرى محتملة يحفل بها التاريخ البشري.

وإضافة لذلك، فإن هذا الصراع قد لا يفرض نفسه بصورة حتمية، إلا إذا فشل الوعي البشري والفكر الإنساني والذكاء السياسي على الجانبين في حله بصورة سلمية وتقدمية.

إن المقام لا يتسع هنا لمعالجة المسارات المحتملة لهذا التناقض وصور الصراع. فموعدنا إذن في العدد القادم من "رواق عربي".

رئيس التحرير